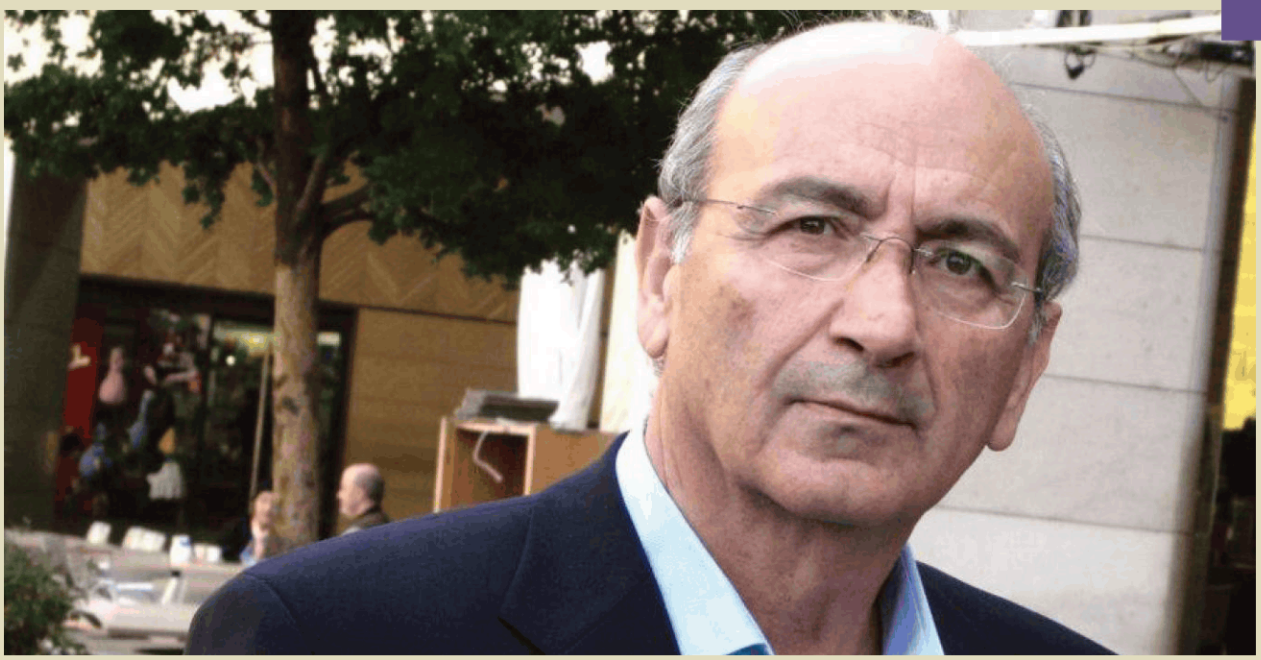

الروائي اللبناني رشيد الضعيف:
في الحرب تجري اللغة كما تشاء.. ولا علاقة لها بالواقع

أجرت الحوار: د. لطيفة القاضي - اليمن

يعد الروائي والشاعر والأكاديمي اللبناني رشيد الضعيف (مواليد 1945م) أحد الرواد الروائيين، فهو صاحب قلم فريد، يتميز ببساطة الجمل، وقد سعى إلى توظيف الواقعية في خدمة الرواية، تنهل كتاباته من الأنا والناس جميعًا، قلمه مفتوحٌ لكل ما هو جريء، وغالبًا ما يثير تساؤلاتٍ حول موضوعات يكتب عنها، إلا أنه خجول في الحياة. أسلوبه موارب بلغة مثقولة ونافذة الأثر. تَحمِل أعماله رؤى جمالية وإنسانية تخدم الثقافة العربية.

كتب عن الحرب الأهلية في لبنان، والعلاقة بين الرجل والمرأة، والقدر، والانتماء والهوية، والحداثة والتقليد، وعلاقة الحرب بالأدب.

ولا يزال الضعيف يستمتع بلعبته الأثيرة في تعرية السياسة والثقافة والمجتمع خلف قناع السخرية السوداء، ويغوص بكتاباته في المثقف العربي وتناقضاته.

حاز رشيد درجة الدكتوراه في الأدب الحديث من جامعة السوربون عام 1974، وعمل مدرسًا للغة العربية للأجانب في باريس (1972 - 1974)، وأستاذا للغة العربية والأدب العربي بالجامعة اللبنانية في بيروت (1974 - 2008)، كما عمل أستاذًا زائرًا في جامعة تولوز الفرنسية عام 1999م.

بدأ الضعيف مسيرته الأدبية شاعرًا عام 1979، ثم انتقل إلى عالم السرد عام 1983.

صدر له أكثر من سبع عشرة رواية وثلاث مجموعات شعرية، ومجموعة قصصية قصيرة شخصياتها أطفال، وترجمت أعماله إلى لغات عالمية.

حصل على جائزة محمد زفراف للرواية العربية في دورتها الثامنة عام 2023، ووصل إلى القائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية هذا العام عن رواية الوجه الآخر للظل.

● كرّسْتَ قلمك لتسليط الضوء على فكرةٍ ما أو صورةٍ ما لطرح الأسئلة وإيجاد الأجوبة، مثلًا: هل المطلوب من الأدب تشخيص الواقع، وطرح الأسئلة، أم تغيير هذا الواقع، وإيجاد أجوبة؟

- أردد دائمًا أن ما يسمى الواقع، هو عندي في خدمة الرواية لا العكس. الرواية في نظري وممارستي فن وصولي يستخدم كل شيء من أجل بلوغ غايته. وغاية الرواية اكتمالها.

ودائمًا ما أقف حائرًا بماذا أجيب حين أُسأل عمّا أقصد من هذه الرواية أو تلك، لأنني، وأنا أكتب، أنشغل بعملية البناء لا بتصوير الواقع. أما قصدي فهو ملك القارئ.

● الأديب اللبناني الواعد، لقد استهللتَ مشوارَكَ الكتابي بالشعر، ثم انتقلتَ إلى كتابة الرواية، وقد وظفتَ الشعر في الرواية، كيف خضتم التحولات عن كتابة الشعر إلى الرواية؟

- أنا جزء من هواء هذا العصر، لسنا بالضرورة دائمًا أسياد أنفسنا. هذا العصر اختلف عن العصور السالفة، والعصر نحن!

ثم إنني لم أكن يومًا شاعرًا بالمعنى الحصري والدقيق للكلمة. كتبت "أشياء" اعتبرها النقاد الذين كتبوا عنها شعرًا، وسرّني ذلك.

بيروت المحاصرة

● في البدايات بدأتَ تجربتكَ السردية برواية المستبد، فهل مِن تفسيرٍ لهذه البداية؟

- لا أجد تفسيرًا سوى أنني أردت يومَها القولَ والبوح، وربما الهروب رغم استحالة الهروب. ورب ما أردت الصراخ من هول هذا الذي كنت شاهدًا عليه. كانت الحرب قد استقرت في لبنان عندما كتبت هذه الرواية. وكان الألم قد تعمّق، وساد شعور باللا معنى.

ولهذه الرواية قصة، فقد استطعت الخروج من بيروت المحاصرة قبل أن يدخلها الجيش الإسرائيلي، بعد أن أحرقت وأتلفت كل ما له علاقة بالحركة الوطنية اللبنانية حليفة المقاومة الفلسطينية آنذاك. لم أفكر في أن آخذ معي مخطوطة "المستبد". وعندما عدت بعد حوالي شهرين أو ثلاثة، وجدت المخطوطة تحت كوم الزجاج وحطام الأشياء الناتج عن القصف. وكانت الجرذان والفئران تسرح في البيت وتمرح، وأصاب المخطوطة بعض الأذى، لكنها نجت.

● في رواية الواقعية، التي حملتْ عنوانًا هو "ألواح" جاءت أقرب إلى سيرة ذاتية غير كاملة، وحفلت بموضوع أثير عندك هو الكشف عن أمور: منها الجنسي، ومنها الاجتماعي، قد يسبب الكشف عنها خجلًا عند الآخرين، ووصفتها بجرأةٍ غير عادية، لقد عبّرت عن مشاعر يُعد مجرد الشعور بها مدعاةً للخجل، فكيف بالبوح بها؟! لقد عرف عن كتاباتك الجرأة، فهل تعتقد بأن الجرأة في الكتابة تحرّر، أم أن القارئ يريد ذلك لتثير اهتمامه، أم هي مناكفة وخدش للحياء؟

- "ألواح" هي سيرة ذاتية، لكنني صغت بعض

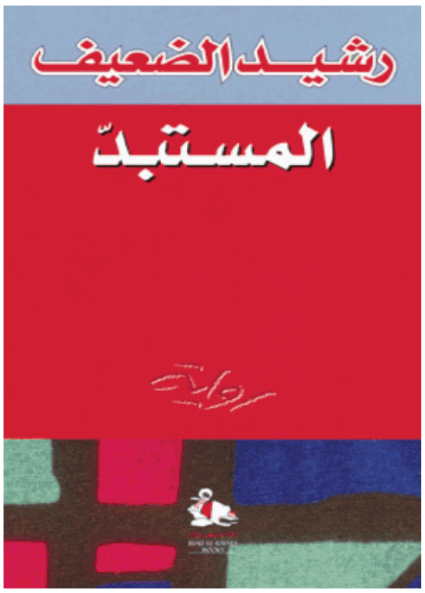

الأحداث كما تمنيتها أن تحدث.

الجرأة ليست همّي عندما أكتب. ليست هدفي، أنا أكتب بحريّتي فحسب، أكتب تصوري للعالم. أكتب رؤيتي له، ولا أظن أنني كنت استطعت الكتابة في مكان لست حرا فيه. لبنان أمّن لي هذا المناخ.

الرواية ملك القارئ، يقرأها كما يشاء، ويفسرها كما يشاء، وهذا ليس تكرارًا أكرره بلا طائل، بل هو حقيقة راسخة. أما أنا فقد كتبت روايتي وحسب، ولا أقصد بها أكثر مما هي.

لكن الإجابة عن سؤالك تتطلب منّي أن أقرأها كقارئ وناقد وأكاديمي، ومن هذه الزاوية أقول إننا بحاجة إلى إجراء حوار تاريخي بين الرجل والمرأة. لأن العلاقة بينهما، التي تترجم بالزواج غالبًا، لم تعد كما كانت في السابق. أنا أرى أن العلاقة هذه كمؤسسة، بحاجة إلى إعادة نظر. وكذلك مفهومنا للأمومة والأبوة والأخوة.

الأم لا تختزل إلى الحنان، الأم إنسان، أي مجموعة مشاعر متعددة ومختلفة، بل متناقضة أحيانًا. وكذلك إن لها تصورًا للعالم وللذات قد يكون مختلفًا عن شريكها وعن أولادها أيضًا.

ربما أبنت في كتابتي عن أشياء تفاجئ، ربما لأن الشمس تطهّر، وكذلك الهواء الطلق!

● كيف تنظر إلى المشهد الثقافي اللبناني اليوم؟

- أراه مزدهرًا إلى حد بعيد في كل المجالات. في المسرح والسينما والرسم والشعر والرواية، إلخ...،

> خرجت من بيروت المحاصرة تاركاً رواية «المستبد»

وذلك رغم كل هذه الأزمات المتلاحقة والعصية التي نعانيها.

● لقد وصلت إلى القائمة الطويلة للرواية عن رواية الوجه الآخر للظل (2024)، هل كنتَ تتوقع ذلك، وما شعورك لحظة تلقيك خبر الفوز؟

- سررت كثيرًا.

● في تلك الرواية، الصادرة عن دار الساقي، تسرح مشاعل الخيال لتنقل القارئ فوق بساط شهرزادي إلى فضاءات لا نهائية، وعلى هذا المنوال انشغلت بالتراث الحكائي العربي متمثلًا في "ألف ليلة، وكليلة ودمنة، وكتب الجاحظ والأصفهاني"، وغيرها، ألا تتفق معي بأن شخصية الملك في الرواية تشبه إلى حد كبير شهريار في "ألف ليلة وليلة"؟

- ربما تشبهه في جانب ما، لكن رد فعل الملك في "الوجه الآخر للظل"، هو رد فعل الرجال عامة في كل زمان ومكان، لكن "الخيانة" هنا تصيب مسألة السلطة في الصميم؛ إنها تضعف هيبة الملك وتهدده بشخصه وبملكه معًا، لذلك فالسكوت عنها يستحيل.

والمسألة الأهم هنا هي أن الأميرة قررت الاحتفاظ بجنينها مهما يكن من أمر، ومهما تكن المخاطر عظيمة، فجسدها لها ولا يحق لأحد أن يشاركها قرارها بشأنه، بل لا يستطيع أحد أن يملي عليها إرادته بخصوص جسدها، لذلك ذهبت إلى آخر الطريق في هذه المغامرة المهلكة.

● في الرواية نفسها كانت اللغة على مستوى الصنف الأدبي المنتقى؛ بلاغة وشعرية وعبارات مطرزة بالصور والمجازات، لا يقدر على صفّها وتوظيفها وتكثيفها إلا كاتبٌ قديرٌ وأديبٌ مكين، اللغة هنا بطلٌ رئيسٌ أحاط بالحكاية، وتضمنت أفكارًا إبداعية من أفكار فلسفية وأسئلة وجودية عميقة، كيف قمتَ بتوظيف اللغة في الرواية، ما

الذي دفعك لكتابة هذا النوع من الرواية؟

- أنا أومن بالعمل. قلت في إحدى المقابلات أنا لست موهوبًا، بل أنا شخص يعمل، ربما كانت الموهبة هي الإيمان بالعمل، على كلٍّ، يسرنّي هذا التقدير منكِ.

• هناك إقبالٌ كبيرٌ اليوم على الكتاب الإلكتروني، فهل يمكن أن يقضي هذا الأخير على الكتاب الورقي؟

- هذا موضوع تجري عليه نقاشات لا تنتهي، ويبدو أن القول الفصل هو للمستقبل الذي لا يمكن التنبؤ به.

أظن أنهما سيتعايشان مدة طويلة... كما يبدو الأمر حتى الآن، لأن لكل منهما حسناته.

اللغة تَقرأ الواقع على هواها

• رواية "غفلة التراب" التي تحكي عن فترة ظهور عجائبية لدى المسيحيين اللبنانيين بعامة، وفي بلدة إهدن خاصة، بالتزامن مع احتدام المعارك الطاحنة بين أفرقاء لبنانيين، وتقوم حكاية الرواية على خلطة من السيناريوهات والقصص الجانبية والخوارق، إلى جانب فاجعة مقتل اثنين من الشبان الإهدنيين من أسرتَين مختلفتين ومتخاصمتين سياسيا؛ إذ تهاطَلَتْ عليهما الردميات الترابية المدحولة بينما هما يحفران خندقًا لبناء منزل أحدهما، وقد ضمنتَها رؤيتك للحرب الأهلية في لبنان، إلى أيّ مدى أثّرت الحرب فيك عندما كتبتَ الرواية؟

- في أثناء الحرب في لبنان اتضح لي أمرٌ أساسي، وهو أن اللغة تجري كما تشاء، ولا علاقة لها بالواقع كما نتصوره، اللغة تَقرأ الواقع على هواها.

> **الحرب أرتني بأم العين، وباللمس أيضًا، أن الشر ليس له قرار**

واتضح لي أننا أدواتٌ لكائن بهيمي غامض جبار، هو التاريخ؛ إننا أدواته التي يستعملها ليجري لا أحد يعرف إلى أين، ولا هو ذاته يعرف، اللغة أيضًا أداة من أدوات التاريخ.

أثناء الحرب في لبنان، فقدت ثقتي بالمفاهيم والمصطلحات التي اعتمدتها لوعي الواقع، وتفسير التاريخ، وتوجيه عملي السياسي وتحديد الهدف. وبسبب هذا الفَقد كانت عودتي إلى الأدب، الذي رأيت فيه خيرَ أداة لما أنا محتاج إليه.

قلت "عودتي إلى الأدب"، لأنني كنت توقفت عن النشر وأبطأت من وتيرة الكتابة في سنوات النضال، التي أقمت في أثنائها فَرقًا بين ما أسميته "الروح العلمية" والأدب. أقمت هذا الفرق، أنا والكثيرون من المثقفين الرفاق، وقررنا أن شعوبنا بحاجة إلى الروح العلمية لا إلى الأدب، وخاصة الشعر.

الحرب أرتني بأم العين، وباللمس أيضًا، أن الشر ليس له قرار، وأن في الإنسان طاقةً على الأذى لا توصف. وأن العَداء شعور ضروري للناس، وأن الإنسان إذا عدِم العدو أخرج من نفسه عدوا ليكرهه وليقاتله. قلت في كتابي الشعري "أي ثلج يهبط بسلام"، "عادوا لتطيب مآكلكم"، أرتني الحرب أن الأدب، وربما الفنون كافة، مرتبط بالشر والألم والأوجاع والمآسي.

وكان من هذا الأثر الذي أورثتني إياه الحرب، أنني كتبت بحريّة، لأنني كتبت حينها لا لأنشر، بل لأكتب، ولذلك لم أكتب نَسْجًا على منوال.

أقول اليوم بثقة، إن الحرية هي المسؤولية الكبرى، لأنها قد تودي بك إلى الهلاك، أو إلى نيل جائزة محمد زفزاف للرواية العربية.

• رواية "أهل الظل" هي تحاوُر شعري ووجداني ورمزي في آن واحد بين رجل وامرأة، يعزم الأول بناء منزل له على الصخر، فيتهيأ للمرأة أن هناك أفعى في أحد شقوق المكان. هل كان القصد عند كتابتها المنزل الزوجي؟

- نعم!

الحيوانات المؤذية كالأفعى والعقرب هي حيوانات ظل. الرجل والمرأة يتحابان ويسعيان للعيش في ظل سقف بيت واحد، يسعيان ليتحولا إلى كائنات الظل.

• رواية "أوكي، مع السلامة" تحكي عن علاقة الراوي الذي بلغ من العمر ستين عامًا بامرأة تُدعى هامة، وهي مطلقة أميركية عادت من بلدها. لكنها سرعان ما تنفصل عن الراوي، وبغرابة. هل برأيك تعَد فكرة اللحظة الجنسية عند المرأة الفكرة الأساسية للرواية، أم أن الراوي كان عاجزا عن تلبية المساعدة المعنوية للمرأة؟

- الله وحده يعرف ما الذي يبعد امرأةً عن رجل بعد علاقة متينة، إن المشاعر تمتطي الإنسان، وتقوده حيث تشاء، إن الإنسان ليس سيد هواه،

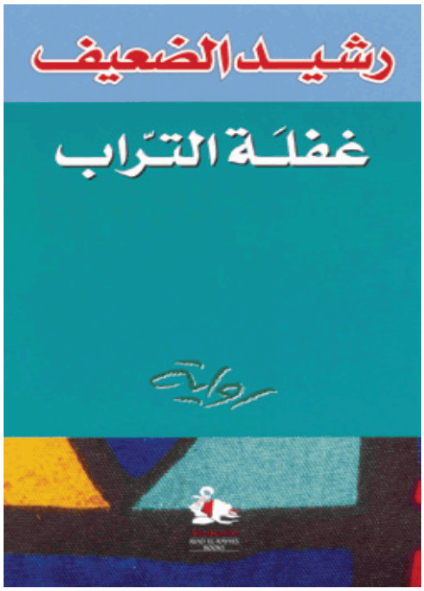

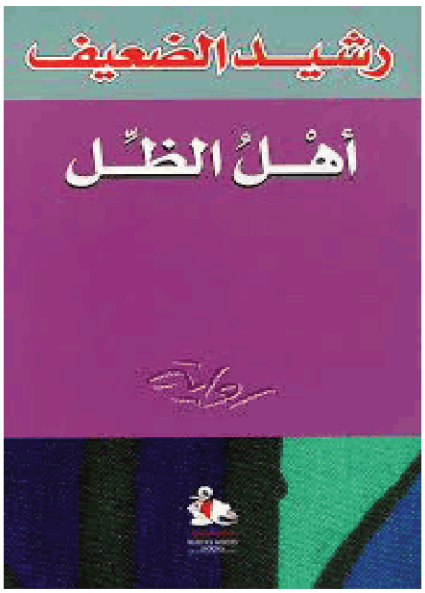

المرأة أعظم المخلوقات، لذلك يحق لها أن تكون متقلبة المزاج

وبخاصة المرأة، المرأة أعظم المخلوقات، لذلك يحق لها أن تكون متقلبة المزاج.

تفجير المرفأ والرواية

• "ما رأت زينة وما لم ترَ"، الرواية الصادرة حديثًا عن دار الساقي، بطلة الرواية زينة ترملت وقتما كانت صغيرة بالسن، رحلت من أجل لقمة الخبز من الضيعة إلى بيروت لخدمة عائلة. زمنيا، كانت أحداث الرواية في ثلاث ساعات (بين الرابعة بعد الظهر والسابعة) من يوم واحد هو يوم الثلاثاء 4 أغسطس؛ اليوم الأسطوري الذي حصل فيه انفجار مرفأ بيروت. لماذا اخترتَ تفجير بيروت مسرحًا لتلكَ الأحداث؟

- لم أختر تفجير مرفأ بيروت مسرحًا للرواية، بل هو اختار نفسه وفرضها عليّ فرضًا لا يرد. إن هذا الانفجار أدى إلى قتل وجرح ستة آلاف شخص، وتدمير وتضرر ألوف الشقق والمباني، وذلك في مدينة تعاني أزمات اقتصادية وسياسية صعبة، في بلد لا يحلم شبابه إلا بالهجرة. سئل طالب جامعي عن صفات الفتاة التي يفضلها فأجاب: تلك التي تحمل جواز سفر أوروبيا أو أميركيا!

هذه الرواية كتبت في الأصل سيناريو لفيلم سينمائي، لكن الإنتاج متعثّر، فحولتها إلى نص روائي صغير، لذلك اتخذت هذا الشكل.

• وتقول في حوار صحافي: "إذا سألتَني لماذا تكتب؟ أجيبك ببساطة: بماذا تريدني أنْ أعملَ إذا لم أكتب؟"، هل تعَد الكتابة بالنسبة لكَ الحياةَ بأحزانها وأفراحها، هل هي راحة نفسية؟

- هذا صحيح. إذا سألتني لماذا أكتب أجيبك ماذا تريدينني أن أفعل إذن؟ إنه سلوك تأصل منذ عقود، واستحكم بلا قرار متّخَذ. كنت منذ البدء واعيًا أن الكتابة تستغرقني شيئًا فشيئًا، وكنت مستسلمًا بلا مقاومة، إلى أن استغرقتني بالكامل.

• رواية "أهل الظل" تعتبر قصيدة في رواية والعكس. وهنا نجد أن رواية "ألواح" لغتها ليست حيادية على الإطلاق. وعندما نقرأ "معبد ينجح في بغداد" يشعر القارئ أنه يدخل إلى مكانٍ تعبيري آخر. اللغة في نصوصك متوارية خلف الحدث، نجدها لغة شفافة نرى خلالها ما نريد قراءته. لكن مرات أخرى لا تكون كذلك، فاللغة أحيانًا، تصبح شخصيةً من شخصيات الرواية، مثلاً: كأن تقول: "خرج من بيته، تلمّس حبة الأعصاب في جيبه، تدفقت الدماء إلى صدغيه...)، وهنا نجدك لامستَ نمط وجود الخوف بدلًا مِن استعمال كلمة (خاف)، كيف تشتغل على اللغة؟

- نعم. أحاول أن أعتمد كل مرة لغة تناسب الموضوع، وأحيانًا أحاول أن أجعل من اللغة جزءا من الموضوع، بل أكاد أقول "شخصيةً" من شخصياته.

• أعلنَت مؤسسة منتدى أصيلة فوزك بجائزة محمد زفزاف للرواية العربية في الدورة الثامنة (2023)، إلى أي مدى تمثّل الجائزة معيارًا للحكم على العمل الفني، وما الذي تضيفه الجوائز؟

- أنا سعيد جدا إذ اختارتني مؤسسة منتدى أصيلة لتكريمي بجائزتها لهذه السنة (أكتوبر 2023). وكنت سعيدًا بهذا الاستقبال، وبجدية سعيهم وإصرارهم على أن تبقى هذه الجائزة عالية المستوى، بين أرقى الجوائز في العالم العربي.

الجائزة تحمّلني مسؤولية السعي نحو الأفضل. وتدعونني إلى التنبّه إلى أنني لست بالضرورة الأفضل، لأنها خيار اللجنة المؤلفة من بشر، وليست خيار العقل الكلي، والحَكَم المطلق المعرفة، والتام الذائقة، بهذا المعنى أيضًا هي تحمّلني مسؤولية كبيرة.

ثم إن الجائزة هي اللجنة، فبقدر ما تكون اللجنة جديةً ومنصفةً وحياديةً وخادمةً للإبداع، يزداد احترامك للجائزة، وتزداد بالتالي ثقة الفائز بعمله

• أخيرًا، ما المشروعات الكتابية التي تشتغل عليها حاليا؟

- أعمل الآن على رواية جديدة في مناخ ميثولوجي، في مناخ روايتَي الاثنتَين "الأميرة والخاتم" و"الوجه الآخر للظل".